مُحدّدات الفكر التربوي الإسلامي وانعكاساتها على رؤية المُفكّر التربوي المعاصر

تاريخ تسلم البحث: 2014/6/24م تاريخ قبوله للنشر: 2014/9/15م

عدنان خطاطبة *

الملخص

هدفت هذه الدراسة النظرية إلى بحث مُحدّدات الفكر التربوي الإسلامي وانعكاساتها على رؤية المفكر التربوي المعاصر من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما مفهوم الفكر التربوي الإسلامي؟ ما خاصية "الاجتهادية" للفكر التربوي الإسلامي؟ وما مصادره؟ ما مِعْيارِيّة الفكر التربوي الإسلامي؟ وما انعكاسات كل ذلك على المفكر التربوي؟ وقد استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي في دراسته، وكان من أهم النتائج: الفكر التربوي الإسلامي هو النتاج التربوي المعرفي وآلياته للعقلية المسلمة من مفكرين وعلماء وتربويين، والمتصل بصورة مستقلة أو غير مستقلة بميادين الدين والكون والحياة والإنسان، وذلك في ضوء المنهجية الإسلامية. وشروط "معيارية" الفكر التربوي الإسلامي هي: عقلية مسلمة، ومصادر معرفية إسلامية، ومبادئ وقيم الإسلام ومقاصده، وطرق بحثية واستدلالية علمية، وقضايا وموضوعات واقعية ونافعة. يقوم المفكر التربوي المسلم بتمحيص أدبيات الفكر التربوي ونقدها ملتزما في ذلك بالمعيارية الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: الفكر التربوي الإسلامي، المعيارية الإسلامية، انعكاسات تربوية.

* أستاذ مشارك، كلية الشريعة، جامعة اليرموك.

Abstract

This study examines the Islamic ideology of education and raising children. Islam has regularized the individual's relationships with his family, neighbors and his or her local community. This research touches upon various scholars who have discussed this Islamic ideology of education and its limitation over time.
Keywords: Prophet's guidance, Islamic values, Patients' visit, Islamic Education.

المقدمة

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد: يُعدّ الفكر التربوي الإسلامي مقوماً أساسياً من مقومات الحضارة الإسلامية، ودليلاً عملياً على منهجية التفكير الإسلامي والاجتهاد الشمولي في كل مجالات المعرفة والسلوك، فاجتهاد العلماء كما وقع في المجال الفقهي وقع كذلك في المجال التربوي، حيث كان لعلماء الأمة ومفكريها وتربويّيها نظر في النصوص الشرعية الخاصة بالتربية والتعليم، وتطبيق لأصول الاستدلال العلمي عليها، واستنباط لعدد كبير من الآراء التربوية والتعليمية المتصلة بواقع المجتمع الإسلامي في مسيرة الأمة الحضارية قديماً وحديثاً.

وهذه الآراء والأفكار التربوية المبثوثة في الأدبيات الإسلامية المختلفة، أطلق عليها في العصر الحديث مسمّى "الفكر التربوي الإسلامي"، لتعبّر عن ذلك الإنتاج التربوي والتعليمي الذي قّدمه المسلمون عبر العصور الإسلامية منذ ما بعد العصر النبوي إلى وقتنا الحاضر، واستخدم هذه المفهوم "الفكر التربوي الإسلامي" في واقعنا المعاصر على مستوى أكاديمي جامعي حيث درس تحت مسميات مختلفة في عدد من الجامعات العربية والإسلامية، واستخدم كذلك كعنوان لمؤلفات تربوية إسلامية عُنّون لها بالفكر التربوي الإسلامي. ولكن من يتعامل عن قرب مع هذا العنوان "الفكر التربوي الإسلامي" سواء على مستوى التدريس أم التأليف يجد إشكالات حقيقية حول استخدام هذا العنوان ومضمونه المندرج تحته، كما يجد إشكالات قوية تتعلق بالدلالة المفاهيمية لمكونات هذا المفهوم. ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتعالج جانباً من ذلك، وتسهم في حَلّ مواقع من هذه الإشكالات.

مشكلة الدراسة وأسئلتها

تتأتّ مشكلة الدراسة من معاناة واقعية عاشها الباحث طوال سنوات من اهتمامه بمجال الفكر التربوي الإسلامي، وتدريسه لمساقات على مستوى البكالوريوس والدكتوراه، وإشرافه على عدد من الرسائل العلمية ومناقشتها، تمثلت هذه المعاناة بوجود إشكالات حقيقية شارحه لمنظومة المفاهيم المكونة للإطار العام للفكر التربوي الإسلامي، من جهة غياب التعريفات الشارحة لمفهوم الفكر التربوي الإسلامي، وحالة الخلط بين مصادره ومصادر الإسلام نفسه، وضعف الربط التربوي فيها، وكذلك الحال بالنسبة للخصائص، وغير ذلك من المواضع التي تشكل مقدّمات أساسية لمفهوم الفكر التربوِي الإسلامي. وقد أشارت دراسة جرادات (1996) إلى وجود غموض في عدد من المفاهيم الأساسية المشكلة للفكر التربوي الإسلامي في مؤلفات التربية الإسلامية وتكرار واستنساخ للتعريفات والأفكار دون تأصيل أو تمييز واضح بينها أو تجديد لها، وأوصت بالعمل على القيام بدراسات علمية تعنى بتحرير المجال المفاهيمي للفكر التربوي الإسلامي ومراجعة ونقد أدبياته بما يساعد على تطويره وتوضيح معالمه. لذلك رأى الباحث أن يسعى لحلّ هذه الإشكالية، وأن يجتهد– قدر الممكن– في تقديم رؤى يمكن من خلالها تجاوز هذه المشكلة البحثية وتقديم إجابات عنها، وقد رأى أن يجمع هذه المقدّمات الشارحة لمكونات مفهوم الفكر التربوي الإسلامي تحت عنوان "محددات الفكر التربوي الإسلامي" من هنا جاء سؤال الدراسة الرئيس:

- ما مُحدّدات الفكر التربوي الإسلامي؟ وما انعكاساتها على رؤية المفكر التربوي المعاصر؟ والذي تفرع إلى الأسئلة المحورية الآتية:
  - ما مفهوم الفكر التربوي الإسلامي؟
  - ما طبيعة خاصية "الاجتهادية" للفكر التربوي الإسلامي؟
  - ما مصادر الفكر التربوي الإسلامي؟
  - ما مِعْيارِيّة الفكر التربوي الإسلامي؟
  - ما انعكاسات محددات الفكر التربوي الإسلامي على المفكّر التربوي؟

أهداف الدراسة

هدفت الدراسة إلى تحقيق ما يأتي:

- تحديد مفهوم الفكر التربوي الإسلامي.
- تقرير خاصية "الاجتهادية" للفكر التربوي الإسلامي وإظهار أبعادها.
- بيان مصادر الفكر التربوي الإسلامي وأطرها التربوية.

- تحديد مِعْيارِيّة الفكر التربوي الإسلامي وبيان ضوابطها.
- بيان انعكاسات محددات الفكر التربوي الإسلامي على المفكّر التربوي المسلم.

أهمية الدراسة

تبرز أهمية الدراسة من خلال ما يأتي:

- تؤصل لرؤية إسلامية لأحد أبرز المفاهيم الإسلامية في مجال التربية والتعليم.
- تحل عددا من الإشكالات المتعلقة بواقع استخدام مصطلح الفكر التربوي الإسلامي.
- تقدم مقترحات ورؤى تساعد الباحثين في مجال الفكر التربوي الإسلامي على توحيد منهجيتهم وإنضاج العمل في مجال التأليف والتدريس.
- ترفد المكتبة الإسلامية التربوية بدراسة تجديدية في مجال الفكر التربوي الإسلامي تسهم في تطوير عمل المؤسسات التربوية والتعليمية.

الدراسات السابقة

كانت نتيجة اطلاع الباحث على ما كتب في الفكر التربوي الإسلامي خلال تدريسه وبحثه في هذا المجال لسنوات أنه لم يقف على بحث علمي محكم أو رسالة ماجستير أو أطروحة دكتوراه ناقشت محددات الفكر التربوي الإسلامي، وهذا طبعا بحدود معرفته. ولكن وجد هناك دراستين ألمحتا إلى جوانب ذات صلة جزئية بأفكار دراسته وهما: دراسة السامرائي (1997) بعنوان "تعزيز فقه الواقع في ضوء الفكر التربوي الإسلامي".

هدفت الدراسة إلى بيان أهمية الفكر والتراث التربوي الإسلامي في تحقيق الفقه المثل لفقه الواقع. وكان من أهم نتائجها أن فقه الواقع ومتغيراته ودراية النص وسلامة الاستنباط تكفل لفاعلية الفكر التربوي الإسلامي الدوام والاستمرار مهما تطورت معالم الحياة لإنه يوازن بين الثوابت والمتغيرات. ودراسة جردات (1996) بعنوان "المؤلفات المعاصرة في التربية الإسلامية: دراسة نقدية".

وقد بحثت شروط التعامل مع مصادر التراث التربوي الإسلامي، وواقع المؤلفات المعاصرة في التربية الإسلامية، وأثر الترجمات الغربية في منحى الكتابة في مؤلفات التربية الإسلامية، وكان

من مجالات الدراسة مجال الفكر والفلسفة التربوية الإسلامية. ودعت الدراسة إلى قيام حركة نقدية واسعة تحكم على الإنتاج الفكري في مجال التربية الإسلامية وفق معايير واضحة ومحددة.

منهج الدراسة

هذه الدراسة من الدراسات النظرية التي استخدم فيها الباحث المنهج الوصفي التحليلي، حيث قام برصد التوجهات وتوصيف الآراء ذات الصلة بالموضوع وتحليل قضاياه في السياقات المعرفية والواقعية في محاولة منه للخروج بمقاربة علمية تحقق أهداف الدراسة المشار إليها.

حدود الدراسة

تعالج الدراسة محددات الفكر التربوي الإسلامي المتمثلة بالقائمة المفاهيمية الآتية: مفهوم الفكر التربوي الإسلامي، وخاصية "الاجتهادية" فيه، ومصادره، ومِعْيارِيّته. وتقصد الدراسة بالمفكر التربوي المعاصر: كل مَنْ يبحث في مجال الفكر التربوي الإسلامي ويعالج قضاياه من التربويين المسلمين.

التعريفات الإجرائية

- الفكر التربوي الإسلامي: الإنتاج التربوي والتعليمي الذي قّدمه المسلمون عبر العصور الإسلامية منذ ما بعد العصر النبوي إلى وقتنا الحاضر.
- محددات الفكر التربوي الإسلامي: يقصد بها في هذه الدراسة مفهوم الفكر التربوي الإسلامي ومصادره التي يستمد منها وطبيعته الاجتهادية ومعاييره ومقاييسه المعتبره في تقرير ما هو أصيل فيه مما هو دخيل عليه.
- المفكر التربوي: هو المتخصص بالنظر التربوي تعلما وتعليما وكتابة سواء في مؤسسات علمية أو غيرها، بحيث تمثل وجهة نظره الفكر التربوي الإسلامي.
- الانعكاسات التربوية: ما يتوقع ان تتركه عملية الفقه السليم لمحددات الفكر التربوي الإسلامي التي تم مناقشتها وتبنيها في هذه الدراسة على تفكير التربوي المسلم المعاصر.
- خطة الدراسة: تكونت الدراسة من مباحث خمسة هي: المبحث الأول: مفهوم الفكر التربوي الإسلامي، والمبحث الثاني: خاصية "الاجتهادية" للفكر التربوي الإسلامي، والمبحث الثالث: مصادر الفكر التربوي الإسلامي، والمبحث الرابع: مِعْيارِيّة الفكر التربوي

الإسلامي، والمبحث الخامس: انعكاسات محددات الفكر التربوي الإسلامي على المفكّر التربوي.

المبحث الأول: مفهوم الفكر التربوي الإسلامي

يعنى هذا المبحث بدراسة مفهوم الفكر التربوي الإسلامي، وسيتمّ من خلال ما يأتي:

أولاً: تعريف الفكر التربوي الإسلامي

تقضي المنهجية البحثية للوصول إلى تعريف للفكر التربوي الإسلامي، البدء بتعريف الفكر عموماً، ثم الفكر التربوي الإسلامي باعتباره الدائرة الأخص.

تعريف الفكر

الفكر لغةً: قال ابن فارس (1998، 825): "فكر: الفاء والكاف والرّاء تردُّدُ القلب في الشيء. يقالُ: تفكَّر: إذا ردَّدَ قلبه معتبراً"، وقال الرازي (2005، 443): "التَفَكُّر: التأمّل، وأفْكَر في الشيء وَفَكَّر فيه بالتشديد، وتَفَكَّرَ فيه بمعنى. ورجل فَكِّير: كثيرُ الفِكر"، وقال ابن منظور (2005، 641/3-642): "فكر: الفَكْرُ والفِكْرُ: إعمالُ الخاطر في الشيء، والاسم الفِكْرُ والفِكرةُ، والمصدر الفَكْر بالفتح". وقال الفيروز آبادي (1998، 458): "الفِكْرُ: إعمال النظر في الشيء، والجمع أفكار"، وقال مجمع اللغة العربية (1998، 698): "فَكَرَ في الأمرِ فِكْراً وَفكْراً: أعمل العقل فيه، ورتّب بعض ما يعلم ليصل به إلى مجهول. وفكَّر في الأمر: مبالغة في فَكَر، وهو أشيع في الاستعمال من فَكَر. وَفكَّر في المشكلة: أعمل عقله فيها ليتوصل إلى حَلِّها، فهو مُفكِّر. والتفكير: إعمال العقل في مشكلة للتوصل إلى حَلَّها".

ومن خلال المعاني السابقة لكلمة "فكر" التي أوردها علماء اللغة، يمكن تحديد معالم الدلالة اللغوية لكلمة "الفكر" بالآتي:

المعنى المحوري لكلمة "الفكر" يدور حول عملية التأمّل والنظر التي يقوم بها العقل أو القلب أو الخاطر في شيء ما أو موضوع مُعيّن.

هناك غاية لعملية التفكير هذه تنصب حول الاعتبار، أو الوصول لموقف جديد، أو حلّ مشكلة قائمة، وذلك بالاستفادة من معطيات موجودة.

جمع كلمة "فكر" هو أفكار. وصيغة "فكّر" بالتشديد هي الأشيع في الاستخدام من "فكَر" بالتخفيف، وهي صيغة مبالغة تفيد قوّة التفكير وكثرته.

أساس الفكر هو إعمال العقل وتشغيله لا تعطيله، وأن مجرّد التقليد والمحاكاة لا يعدّ تفكيراً.

الفكر في لغة القرآن: قال الراغب الأصفهاني (2003، 643): "التفكّر للإنسان دون الحيوان، قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ**﴾ [الروم: 8]، ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الرعد: 3]. والفِكْر مقلوبٌ عن الفَرْكِ، لكن يستعمل الفِكْرُ في المعاني، وهو فَرْك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها".

وقد وردت مشتقات كلمة "فكر" في القرآن الكريم (18) مرّة، بصيغة: فَكَّر مرّة واحدة، وتتفكّروا مرّة واحدة، وتتفكّرون ثلاث مرات، ويتفكّروا مرتين، ويتفكّرون أحد عشرة مرّة (عبد الباقي، 2001). والملاحظ أنها كلها صيغ فعْلية تصف عملية التفكير، ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر (الفِكْر)، تماماً كما هو في صيغ ورود مادة "عقل". وكأنّ الحكمة من ذلك هو ضرورة الاعتناء بالجانب التطبيقي لا الفلسفي المجرّد، أي التركيز على عملية التفكير– وكذلك التعقّل– النافعة والمؤدّية لأغراضها الواقعية بعيداً عن جدلية الألفاظ.

ومن معاني كلمة "فكر" في سياق الآيات التي وردت فيها، ما ذكره ابن عاشور (دت، 2/ 354) في قوله تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ [البقرة: 219]، بقوله: "لعلكم تتفكرون"، غاية هذا البيان وحكمته. والمعنى: ليحصل لكم فِكْرٌ، أي: علم في شؤون الدنيا والآخرة". وقال أيضا (دت، 7\244): "والتفكّر: جَوَلان العَقْل في طريق استفادةِ علم صحيح". وقال ابن عاشور (دت، 179/9) في قوله تعالى: ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[الأعراف: 176]، "أي: اقصص هذه القصة وغيرها، فإنَّ في القصص تفكّراً وموعظةً". وهذا فيه إشارة لغاية التفكير وهي حصول عملية الاتعاظ والهداية، وبيّن عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل: 44]، أن المراد، إما أن يتفكّروا بأنفسهم في معاني القرآن وفَهْم فوائده، وإما أن يتفكّروا في بيانِك ويعوه بأفهامهم (ابن عاشور، دت). وقال ابن عاشور (دت، 29 /307) في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ**﴾ [المدّثر: 18]، "وقد وصف حالة (الوليد بن المغيرة) في تردّدِه وتأمّله بأبلغ وصف، فابتدئ بذكر تفكيره في الرّأي الذي سيصدر عنه وتقديره، ومعنى فكّر: أعمل فكره، وكرَّر نظَر رأيه ليبتكر عذراً يموّهه ويروجه على الدّهماء في وصف القرآن". وفي هذا إشارة إلى عمليات التفكير غير المهتدية، والضّالة، وذات النتائج السلبية والضّارة.

تعريف الفكر اصطلاحاً

هناك عدد من التعريفات للفكر في الاصطلاح العام، منها: الفكر: "ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول"(الجرجاني، 1405هـ/217). والفكر: "عمل الذهن تدبراً وتأمّلاً في أي شأن من شؤون الحياة الدنيا أو الدين، وهو نشاط بشري أداته العقل، وثمرته الرأي والعلم والمعرفة"(القادري، 13/2005)، وعُرف كذلك بأنه "نتائج لعقلانية الإنسان، أي: أعماله لعقله وتفكيره في ذاته وفي الكون والمخلوقات"(عطية، 2004، 18). وهناك من يوضح دلالة الفكر اصطلاحاً بوصفه: "الفكر عموماً هو ذلك النشاط الذهني الذي تفتقت عنه عقليات الشعوب المختلفة على مرّ التاريخ، وكان محصلة للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدتها وعاشتها هذه الشعوب. والفكر بهذا المعنى يُعبِّر عن جانبين: الأوَّل: يتعلق بعملية إنتاج هذا الفكر، أي: بكيفية وأسلوب وأدوات صياغة هذا الفكر، والثاني: هو مضمون هذا الفكر ومحتواه، أي: جملة الآراء والأفكار التي يعبر بها ومن خلالها شعب ما عن اهتماماته ومشاغله، وأيضاً عن مُثله الأخلاقية، ومعتقداته الدينية، وطموحاته السياسية والاجتماعية"(رفاعي وآخرون، 2000، 15). ويرى الدوسري (2011، 51) "أن الفكر في الأصل عمل العقل في مجال المعرفة، ثمّ نقل إلى نتاج هذه الحركة، أي: ثمرة عملية التفكير، فهو عملية النظر والتأمّل في مجموعة من المعارف بغرض الوصول إلى معرفة جديدة، أو هو الإنتاج العلمي والمعرفي".

ويمكن للباحث أن يعرف الفكر في الاصطلاح العام بناء على أصل معناه اللغوي والقرآني وما تقدّم ذكره من تعريفات عامة بالآتي:

الفكر: عمليةُ إعمال العقل الإنساني في موضوع معين ونتاجاتها المعرفية المبنية عليها فالفكر بِناء على ذلك يطلق على أمرين:

- الأول: عملية تشغيل العقل (النظر والتأمّل وآلياته).
- الثاني: النتاج المعرفي والآراء الجديدة التي تمّ التوصل إليها بناء على عملية تشغيل العقل تلك.

بمعنى: أن الإنسان حينما يتأمّل في موضوع ما وينظر في نواحيه وإشكالاته، يسمّى ذلك فكراً، وهو الأصل في معناه، وأيضاً ما ينتج عن تأمّله هذا من حلول وآراء واجتهادات (أفكار) يسمّى هذا أيضاً فكراً.

تعريف الفكر التربوي الإسلامي

يودّ الباحث التأكيد على قلّة التعريفات المذكورة للفكر التربوي الإسلامي رغم انتشاره كمفهوم ومصطلح في حقل الفكر والتربية. وبعد مراجعة الباحث لعدد كبير من كتب الفكر التربوي الإسلامي وتلك المؤلفات والدراسات ذات الصلة بهذا العنوان، أمكنه الوقوف على عدد محدد من تعريفات الفكر التربوي الإسلامي، وهي كالآتي:

- الفكر التربوي الإسلامي: "مجموعة الآراء والنظريات التي احتوتها دراسات الفقهاء والفلاسفة والعلماء المسلمين، ويتصل اتصالاً مباشراً أو غير مباشر بالقضايا والمفاهيم والمشكلات التربوية"(فلية، ومحمد، 2004، 193). وهذا التعريف نفسه ذكره كل من الخطيب (1995) في كتابه، والبيك (2009) في دراسة له.
- الفكر التربوي الإسلامي: "عبارة عن التميز الفكري الذي وجد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وضمن الكتابات التربوية التي جاءت عن طريق مؤلفات أو رسائل أو وصايا أو إشارات في مواضع شتى من الإبداعات والمؤلفات الإسلامية، أنشأها مجموعة من المفكرين ممّن تخصّصوا في الجانب التربوي أو غيره من جوانب الحياة العملية المختلفة" (الرشدان، 2004، 14).
- الفكر التربوي الإسلامي: هو "جملة المفاهيم والتصورات والمبادئ التربوية المستمدة من الكتاب والسنة والاجتهاد الموافق لروح الإسلام" (الرشدان، 2004، 14). وجاء التعريف نفسه في دراسة أبي دف عن معالم الفكر التربوي الإسلامي عند سيد قطب (أبو دف، 2002).
- الفكر التربوي الإسلامي: هو "ما أثِر عن علماء التربية الإسلامية من نظريات وآراء وأفكار توارثتها الأجيال وأخذتها من مفكّري التربية الإسلامية قديماً وحديثاً" (المحيلبي، 2005، 13).
- الفكر التربوي الإسلامي: "هو ما أثر عن علماء التربية المسلمين من آراء ونظريات من أمثال الغزالي والماوردي والقابسي وغيرهم من قدامى ومُحْدَثين على السواء"(رفاعي، وآخرون، 2000، 15).

- الفكر التربوي الإسلامي: "يعني التصوّر الشامل لعناصر المنهج الرباني، والفقه التربوي الأمثل لمستلزماته، لتحقيق كمال الأداء وفق أفضل الأساليب والوسائل التربوية"(السامرائي، 1997، 172).

ويلحظ على التعريفات المتقدّمة ما يأتي:

- إجمال بعضها وتفصيل بعضها الآخر، وتكرار بعضها واعتمادها من قبل آخرين بتعديلات طفيفة أو كما هي.
- فهم الفكر التربوي الإسلامي ضمن مجالين اثنين: مجال القرآن والسنة وما جاء فيهما من تصورات تربوية، ومجال اجتهادات العلماء المسلمين وما احتوته من آراء تربوية. فبعض التعريفات جمعت بين المجالين وأخرى ركزت على واحدٍ منها.
- حصر الآراء التربوية وتخصيصها بعلماء التربية الإسلامية تارة، وتوسيعها بعلماء المسلمين تارة أخرى.
- امتداد الآراء التربوية زمانياً لتشمل القديم والحديث من فكر العلماء.

تعريف الفكر التربوي الإسلامي

بناءً على فقه مدلول كلمة الفكر لغةً اصطلاحاً، وإفادات التعريفات المتقدمة، ورؤية الباحث وتصوره للفكر الإسلامي ولموضوع الدراسة، فإن الباحث يقدم التعريف الآتي للفكر التربوي الإسلامي:

الفكر التربوي الإسلامي هو: النتاج التربوي المعرفي وآلياته للعقلية المسلمة من مفكرين وعلماء وتربويين، والمتصل بصورة مستقلة أو غير مستقلة بميادين الدين والكون والحياة والإنسان، وذلك في ضوء المنهجية الإسلامية.

ولابدّ من تحليل التعريف وتقريبه بما يوضح صورته الكلية بشكل عملي ومنهجي، وذلك وفقاً للملاحظات الآتية:

- هذا التعريف متسق مع ما تمّ اختياره من تعريف للفكر الإسلامي ومراعياً لطبيعة الفكر.
- يحدد التعريف نوع النتاج المعرفي للعقلية المسلمة بالنتاج التربوي فقط (الجانب التربوي)، وهذا التحديد قيد في غاية الأهمية لتمييزه عن غيره من أنواع ومجالات الفكر.

- النتاج التربوي: يشمل كل ما تمّ تقديمه من قبل العقلية المسلمة من عمليات اجتهادية في مجال التربية والتعليم: من آراء وتوجهات ونظريات وأنشطة وأساليب ورؤى وآداب وتزكية ووسائل وغيرها مما له صلة بالعملية التربوية ونظرياتها. وتمّ تقييد هذا النتاج التربوي بالمعرفي حتى يخرج منه النتاج المادي الذي هو عبارة عن "مدنية" أو "حضارة مادية". فالبناء المدرسي المادّي بحدّ ذاته ليس فكراً تربوياً، لكن ما يتعلق به من تاريخ وأهمية ومواصفات ذات علاقة بالعملية التعليمية، ودور اجتماعي وتطور في الأداء والرسالة وغير ذلك، كل ذلك يعدّ فكراً تربوياً.
- يجمع التعريف بين طرفي الفكر التربوي الإسلامي وهما: الآراء والأفكار التربوية من جهة، والطريقة والمنهجية المستخدمة من جهة أخرى.
- يدخل في الفكر التربوي-حسب التعريف- جميع الآراء التربوية الصادرة عن العلماء والمفكرين المسلمين، المختصين منهم في التربية والتعليم أو غير المختصين ممن لهم اهتمامات تربوية محدودة، وسواء جاءت هذه الآراء في مؤلفات تربوية مستقلة أو في طيات متداخلة ومتضمنة مع علوم ومعارف أخرى. فالتعريف لم يحصر النتاج التربوي بالمختصين فقط بالتربية والتعليم، بل عمّمه على سائر فئات العلماء والمفكرين المسلمين من مختلف التخصصات.
- تعد الآراء التربوية التي يشملها الفكر التربوي الإسلامي-حسب التعريف- كل ما كان تربوياً وله صلة مباشرة أو غير مباشرة بميدان دعوة الإسلام وحضارته ونظرته للكون وللحياة وللإنسان.
- يشترط التعريف في الآراء التربوية التي ينظر إليها على أنها تمثل الفكر التربوي الإسلامي أن تكون تلك الآراء وعمليات استنباطها قد خضعت عند أصحابها للمنهجية الإسلامية وتعاطت معها وتوافقت مع أصولها ومقاصدها.
- ترك التعريف القيد الزماني مفتوحاً، ليشمل مفهوم الفكر التربوي الإسلامي كل ما أنتج منه قديماً وحديثاً، وما سيتم إنتاجه لاحقة من المعارف التربوية.

المبحث الثاني: خاصية "الاجتهادية" للفكر التربوي الإسلامي

بعد نظر الباحث وتأمّله في طبيعة الفكر التربوي الإسلامي في محاولة لتجلية خصائصه، رأى أن لا يتبع ما درج عليه من عدّ وذكر لخصائص الفكر التربوي الإسلامي المعهودة عند ذكر خصائص أي مجال من مجالات الإسلام وشرائعه، وكما وجدها في بعض المؤلفات الخاصة بالفكر الإسلامي، وإن كانت محدودة بالفعل وربما لم تتجاوز المرجعين(1)، وكانت في غالبها توصيفاً لخصائص الإسلام أو الفكر الإسلامي عموماً، بل كان أوسع كتاب تعرض لها قد نقل خصائص الإسلام من أحد المراجع وجعلها كما هي خصائص الفكر التربوي والإسلامي(2). وعليه فإن الباحث قد توصّل بعد التأمّل بالموضوع: فكرةً وتأليفاً إلى أن أهم خاصية تعبّر عن الفكر التربوي الإسلامي– وهي بالتأكيد تعبّر كذلك عن الفكر الإسلامي عموماً لا عن الإسلام– بل الخاصية التي يمكن أن يُقال عنها "الخاصية الأم" هي: خاصية "الاجتهادية"، أو سمة الاجتهادية، أو الطبيعة الاجتهادية. وسيحاول الباحث مناقشة هذه الخاصية من خلال المحاور الآتية:

مفهوم خاصية "الاجتهادية" للفكر التربوي الإسلامي

يقصد بخاصية "الاجتهادية" أن الفكر التربوي الإسلامي هو عملية إنسانية، نتجت عن تفكير الإنسان ونظره وتأمّله واستخدامه الآليات والمناهج ومصادر المعرفة المتاحة. فهو مُنتج لتفكير الإنسان، ولذلك كانت طبيعته التي لا تنفك عنه، وسمته اللصيقة به أنه "عملية اجتهادية" مناطة بأداء الإنسان.

عُمق خاصية "الاجتهادية"

يقصد بِعُمْق خاصية "الاجتهادية": ما هو الشيء الأصيل الذي تُرَدّ إليه هذه الخاصية؟ ولماذا لا بدّ أن يوصف الفكر التربوي الإسلامي بهذه الخاصية الملازمة له؟ والحقيقة أن عُمْق هذه الخاصية هو "العقل". بمعنى أن عِمَاد مفهوم "الفكر" يقوم على كونه "عَمَلُ العقل" كما أجمعت على ذلك التعريفات اللغوية والاصطلاحية والإسلامية. وقد ورد ذلك في المبحث الأول بشيء من التفصيل، وظهر أن مَرَدّ الفكر مضموناً واسماً لكونه منبثقاً عن نَظَر "العقل" وتأمّله. ومن هنا يقال بشكل دائم وثابت أن الفكر هو عَمُل العقل وتأمّله، أو هو نتاج العقل الإنساني. من هنا أصبح "العقل" هو جوهر خاصية الاجتهادية وعُمقها الحقيقي، فهو الذي وهَبَها هذه الخاصية، وصبغها بها صبغة أصيلة، وارتبط بها ارتباطاً وجودياً لا ينقطع به.

مرتكز خاصية "الاجتهادية"

يقصد الباحث بمرتكز خاصية "الاجتهادية" للفكر التربوي الإسلامي، قيامها على "ثلاثية" تفاعل العقل مع النصوص الشرعية مع واقع الحياة التربوي. فمحصلة ما يُقال عنه بأنه فكر تربوي إسلامي من آراء وموضوعات وأفكار وحلول لمشكلات تربوية وتعليمية ما هو إلا حاصل تفاعل عقل المسلم (تفكيره ونظره وفهمه وتأمّله) مع نصوص الشرع (آيات قرآنية وأحاديث نبوية) مع واقع الحياة (جوانبها المختلفة التي تمس التربية والتعليم). ولولا هذا التفاعل بين هذه الثلاثية (العقل والنص والواقع) لما خلصنا إلى ما يسمّى بالفكر التربوي الإسلامي.

فُروعُ خاصية "الاجتهادية"

ينبثق عن خاصية الاجتهادية للفكر التربوي الإسلامي عدد من الخصائص الفرعية، منها:

- النِّسْبية: بمعنى أن الفكر التربوي الإسلامي ليس مطلقاً، بل هو فعل إنساني يقوم به عقل المسلم في زمان ومكان محدد وواقعة محددة، وبالتالي فهو متغيّر ومتنوع بحسب إطار الزمان والمكان والوقائع، وهو كذلك قابل للخطأ وللصواب؛ لأنّ آلة إنتاجه الرئيسة هي العقل الإنساني.
- المرونة: بمعنى قدرة الفكر التربوي الإسلامي على التعاطي مع مختلف المؤثرات فيه. فمن المعلوم أن هناك عوامل شتّى تؤثر في التفكير التربوي الإسلامي، كالعامل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والديني واللغوي والحضاري والسياسي وغيرها. فمثلاً حينما توجد الفِرَق الإسلامية، فإن هذا العامل يفرض نفسه على طبيعة الموضوعات التي سيناقشها الفكر التربوي الإسلامي، وتكون لديه المرونة الكافية لتقديم ما يتعلق بالجانب التربوي وتوجيه المسلمين للأخذ به، وكذلك حينما تكون الأمة قي موقع الضعف الحضاري أو القوة الحضارية، فإنّ الفكر التربوي الإسلامي يتخذ المواقف المناسبة في كلّ ذلك. وهذا مرجعه لخاصية الاجتهادية التي تقوم على ثلاثية تفاعل العقلية المسلمة مع النص والواقع. ولو لم يكن كذلك، لما أمكننا أن نجد فكر تربوياً إسلامياً عبر جميع القرون الإسلامية وفي مختلف مراحل نهوضها ونكوصها.
- الفاعلية الاجتماعية: بمعنى أن الفكر التربوي الإسلامي الذي من طبيعته أنه اجتهادي يستجيب لحاجات المجتمع ومتطلبات الإنسان المسلم التربوية والتعليمية. فالاجتهادية – كما تقدّم– من مرتكزاتها تفاعل العقل مع الواقع، وعليه تتمّ تلبية الاحتياجات الواقعية

لأبناء المجتمع المسلم ذات الصلة بالعملية التربوية والتعليمية. ومن هنا وجدنا الفكر التربوي الإسلامي يقدم اجتهادات واقعية في مراحل مختلفة من الحضارة الإسلامية وحياة المسلمين، تسْتجيب لتطوّر وسائل التعلّم، وأساليب التربية، والمشكلات التي تواجه الشخصيّة المسلمة، وتقدّم الآراء والحلول المناسبة لها. فمثلاً نجد الاستجابة الحضارية لفكرنا التربوي الإسلامي فيما يتعلق بمؤسسات التعليم في التطور الحضاري للأمة، فحصل فيها التوسع والتنوع من مؤسسة المسجد إلى مؤسسة الكتاتيب والمؤسسات التعليمية الخاصّة إلى المدارس النظامية والجامعات، وكذلك الحال بأساليب التعليم وتمويل المدارس بالوقف الإسلامي، وغيرها مما يعدّ استجابة لاحتياجات المجتمع وتطلعاته وفاعلية مع الواقع التعليمي المجتمعات المسلمة والانفتاح على ما يستجد من شأن العملية التعليمية والتربوية، والإفادة من كلّ ما هو إيجابي ونافع، ورفض كل ما ليس في مصلحة المجتمع المسلم ولا ينسجم مع مبادئ الإسلام التربوية.

المبحث الثالث: مصادر الفكر التربوي الإسلامي

يناقش الباحث في هذا الموضوع من الدراسة موضوع "مصادر الفكر التربوي الإسلامي"، وسيتمّ ذلك عبر خطوتين هما: تحديد المراد بمصادر الفكر التربوي الإسلامي، ثمّ عرض الباحث لوجهة نظره في مصادر الفكر التربوي الإسلامي.

أولاً: المراد بمصادر الفكر التربوي الإسلامي

في اللغة العربية: "صدر: الصاد والدال والرّاء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على خلاف الورِْد، والآخر صدْر الإنسان وغيره"(ابن فارس، 1998، 587)، "والصدَّرْ: أعلى مقدّم كل شيء وأوّله، وصدّر كتابه: جعل له صَدْراً، والمَصْدَرُ أصل الكلمة التي تصدر عنها صوادر الأفعال، وتفسيره أن المصادر كانت أوّل الكلام، كقولك: الذّهاب والسَّمع والحفِظ، وإنّما صدرت الأفعال عنها، فيقال: ذهب ذهاباً، وسمع سماعاً" (ابن منظور، 2005، 3\496)، وصَدّر الشيء عن غيره بمعنى نشأ، ويُقال: فلان يصدر عن كذا، أي: يستمد منه، والمصدر: ما يصدر عنه الشيء (مجمع اللغة العربية، 1998).

وبناء على فهم المعنى اللغوي وبخاصة ما جاء في المعجم الوسيط لكونه حديثاً يناسب الاستعمال الحديث لكلمة المصادر، فإن الباحث يعرّف مصادر الفكر التربوي الإسلامي بأنها: تلك

المنابع التي يُستعمل منها فكرنا التربوي الإسلامي، وتلك المخازن التي نَرِدها لنأخذ منها الآراء التربوية، والمنشئات التي تُنشئ منها الأفكار التربوية.

ثالثاً: مصادر الفكر التربوي الإسلامي من وجهة نظر الباحث

إن مصادر الإسلام هي ذاتها مصادر الفكر التربوي الإسلامي. لكن يمكن أن يُقال إن أصناف مصادر الفكر التربوي الإسلامي هي ذاتها أصناف مصادر الفكر الإسلامي؛ لأنه فرع عن أصل، ومجال من مجالاته الكلية، فأصناف المصادر هي ذاتها لكن الاختلاف في محتوى المجال، وكذلك الحال بالنسبة للفكر السياسي الإسلامي وغيره.

كذلك، لا بدّ من التأكيد أننا حينما نريد تحديد مصادر الفكر التربوي الإسلامي، فإن المقصود هو تحديد المنابع التي تُستمّد منها الآراء التربوية، والمرجعيات العلمية التي يتمّ التقيّد بها حينما نريد أن نبني فكراً تربوياً إسلامياً، والمخازن التي تحتوي كّمّاً تربوياً يمكن للأمة المسلمة أن تعالج به واقعها التربوي. لذا وجب على مَنْ يبحث في مصادر الفكر التربوي الإسلامي أن يشير إلى تلك المصادر كيف يمكن أن تشكل بالفعل مصدرية ومرجعية لإنشاء فكرٍ تربوي إسلامي لا الاكتفاء فقط بالحديث عن المصدر ذاته والتعريف به فقط.

وبعد دراسة لمصادر الفكر الإسلامي عموماً- وللآراء في مصادر الفكر التربوي خُصوصاً، والتأمل بمفهوم الفكر التربوي الإسلامي وطبيعته- فإنّ الباحث يحدّد مصادر الفكر التربوي الإسلامي بالآتي:

1. **الوَحْي (القرآن والسنة)**

اختار الباحث جمع القرآن والسنة تحتّ مسمّى واحد هو "الوحي" باعتبارها مصدراً للفكر التربوي الإسلامي، لإعطاء هذا المصدر خُصُوصية "الوحي" المعروفة وللتأكيد على أن كلا المصدرين يقع تحت دائرة الوحي. فالقرآن وَحْي من عند الله، والسنة كذلك وهي من عند الله تعالى. قال تعالى" : ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم:4]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ألا إنّي أوتِيت القرآن ومثله معه)) (أبو داود، د ت، ح رقم 4604)، أي السنة في مِثْليّتها كمرتبة الوحي التي للقرآن، لا مثلية الكم. وهذا شرط أساسي في فقه التعامل مع مصدرية القرآن والسنة، حتى تُعطى "السنة" مكانتها في قوّة الاستدلال، وينظر لما جاءت به مما هو "ثابت" في مجال الفكر

التربوي، بأنه وَحْي من عند الله له مكانته التي تليق به. كما يودّ الباحث الإشارة إلى تساؤل قد يطرح، وهو: أين بقية الأدلة (المصادر) الشرعية المعروفة في علم أصول الفقه، كالإجماع والقياس والاستحسان وغيرها؛ والإجابة على ذلك أنها جميعها معتبرة إما برجوعها إلى القرآن والسنة، وإمّا بالتحاقها بدائرة الاجتهاد المعبّر عنها في مسمّيات المصدرين اللاحقين.

فالوحي باعتباره، مصدراً للفكر التربوي الإسلامي يتمثل واقعياً بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وسيتم معالجة موضوع مصدريتهما للفكر التربوي الإسلامي ضمن خطوتين أساسيتين: الأولى: تُعنى بالشرح العلمي لطبيعة هذا المصدر (التعريف به)، والثانية: هي تحديد كيف يكون الوحي مصدراً للفكر التربوي الإسلامي.

الخطوة الأولى: التعريف بالوحي (القرآن والسنة)

الوحي: "الإعلام في خفاء"(ابن حجر، 1993، 1\15)، وأصل الوحي: الإشارة السريعة، ولتضمّن السرعة قيل: أمْر وحْي (الراغب الأصفهاني، 2003، 858). والوحي "شرعاً: الإعلام بالشرع، وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه، أي: الموحى، وهو كلام الله المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم"(ابن حجر، 1993، 1\15). ومن الآيات الجامعة لأنواع الوحي، قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [الشورى: 51]، وقال تعالى فيما أوحاه إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم: 4]، قال ابن كثير (4،260/2003): "أي إنما يقول صلى الله عليه وسلم ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان"، وقال السعدي (2003، 818): "أي: لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى، في نفسه وفي غيره، ودل هذا على أن السنة وَحْي من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [النساء: 113]، وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعة؛ لأنّ كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى". فالوحي الخاصّ بسيدنا محمد صلى الله مما أوحاه الله إليه يتمثل واقعاً في القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم (الزنيدي، 1998).

وللعلماء تعريف للقرآن يقرب معناه ويميّزه عن غيره، فيعرفونه بأنه: "كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، المتعبد بتلاوته"(القطان، 1997، 21)، وقد خصّ القرآن بالكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فصار له كالعَلَم الشخصي (القطان، 1997)، ولا يسمّى به شيء غيره من

سائر الكتب، وإضافة الكلام إلى الله تعالى (كما في التعريف) إضافة حقيقية من باب إضافة الكلام إلى قائله (حسن، 1995).

وأما "السنة النبوية" فيعرفها علماء أصول الفقه، بأنها "ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير"(عتر،1981، 81)، والسنة راجعة في معناها إلى الكتاب، "فهي تَفْصيل مجمله وبيان مشكله، وبسط مختصره؛ وذلك لأنها بيان له، وهو الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ [النحل: 44] (الشاطبي، دت، 9/2).

والسنة وَحْي من الله تعالى، لكنها تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من جهة أنه المنشئ لألفاظها، وأما معانيها فهي من الله تعالى: إما أن ينزل بها جبريل عليه السلام كما ينزل بالقرآن، أو ينفث بها في رَوعه، أو يلهمه إياها مناماً، أو أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول أو يفعل باجتهاد منه، وهذا الاجتهاد إما أن يقر عليه، فيرجع إلى حقيقة الوحي، أو لا يقرّ، فينبّه إلى الصواب (حسن، 1995). ومن الأدلة على كون السنة من الوحي: قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم: 3-4]، أي: "ما يقول قولاً عن هوى وغرض، إنّما يقول ما أمر به"(ابن كثير، 2003، 4/ 260)، وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه المقدام ابن مَعد يكرب رضي الله عنه: ((ألا إنّي أوتيتُ الكتاب ومثله معه)) (أبو داود، دت، ح رقم 4604)، وقوله صلى الله عليه (أوتيت الكتاب) أي: القرآن، وقوله: (ومثله معه): أي: "الوحي الباطن غير المتلوّ أو تأويل الوحي الظاهر وبيانه بتعميم وتخصيص وزيادة ونقص، أو أحكاماً ومواعظ وأمثالاً تماثل القرآن في وجوب العمل، أو في المقدار"(أبو داود، دت، ح رقم 4604).

وحجيّة السنة أمر من المعلوم في الدين بالضرورة، ولا حاجة للمراء فيه ولا للإطالة في الاستدلال عليه. ويكتفي في هذا المقام بذكر أمرين مختصرين: الأول: أن الله عز وجل أمر بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿**مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ**﴾ [النساء: 80]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر: 7]، والثاني: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ذمّ أقواماً يتركون ما جاء في سنته (الصويان، 2001)، كما جاء في حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه- المتقدّم- وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: ((ألا إنّي أُوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يُوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرَموه)) (أبو داود، دت، ح رقم 4604)، وفي رواية أخرى: ((وإن ما

حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرَم الله)) (الترمذي، دت، ح رقم 2664)، فالسنة متى صحّت وثبتت كانت حجّة في أمور الدين كلها، وقد أجمع العلماء من أهل الحديث ومَنْ يعتد به من الفقهاء والأصوليين على أن الحديث الصحيح حجّة يجب العمل به، سواء كان راويه واحداً لم يروه غيره، أو رواه معه راوٍ آخر، أو اشتهر برواية ثلاثة فأكثر ولم يتواتر"(عتر،1981، 244).

والباحث وإن أطال نوعاً ما في هذا البيان فإنما هو لحاجته الماسة بالنسبة للباحثين والدارسين في مجال التربية العامة والإسلامية، ولما لمسه عند بعضهم من عدم وضوح في الموقف من السنة أو تنكّر بعضهم للسنة من أصلها، إضافة لكون هذا البيان غاية في الأهمية لكون الوحي يشكل العمود الفقري من بين مصادر التربوي الإسلامي.

الخطوة الثانية: كيف يكون "الوحي: قرآناً وسنةً" مصدراً للفكر التربوي

بما أن الفكر التربوي الإسلامي يمثل إنتاج العقلية المسلمة فيما يتصل بالجانب التربوي والتعليمي. فنحن إذن أمام فكر تربوي يوصف بأنه إسلامي، ويتمّ باجتهادٍ عقلي من قبل شخصية مسلمة. وعليه فلا بُدّ أن يكون المرجع الأول والأساس في استمداد هذا الفكر التربوي هو الوحي المتمثل في القرآن والسنة النبوية، فيتمّ تقديمها على غيرهما في أيّ موضوع من موضوعات الفكر التربوي التي يراد بنائها. فمثلاً حينما يتم تناول موضوع "تربية الصغار" في الفكر التربوي الإسلامي، أو تطرح قضية "أساليب التعليم"، فهنا تكون الخطوة الأولى إعمال العقل بما جاء به القرآن والسنة مما له صلة بهذين الموضوعين، جمعاً للنصوص ونظراً وتدبراً وتحليلاً، بما يوصل إلى بناء رؤية تربوية تشكل الأساس الذي تقام عليه تفصيلات تلك المواضيع وتطبيقاتها وتطويرها بالإفادة من سائر مصادر المعرفة الأخرى.

ومما لا شك فيه إن كمال هذا الدين المنصوص عليه في القرآن الكريم: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [المائدة: 3]، والذي تمثّل كماله بكمال ما جاء في القرآن والسنة (الوحي) من بيان وهدى شامل لكل جوانب الحياة، ومكونات النفس البشرية، يؤكد غناهما (القرآن والسنة) بمعطيات تربوية كافية لضمان عملية تربوية ناجحة، وهذه قناعة ضرورة لا بُدّ من توفرها في عقلية ونفسية أبناء المجتمع المسلم؛ لأنها المفتاح للدخول إلى مجال الفكر التربوي الإسلامي، والمنشّط لبذل المجهود لصناعته.

ويشتمل كل من القرآن الكريم والسنة النبوية على مبادئ كلية وتفصيلات محددة فيما يتعلق بميدان التربية والتعليم. لكن يمكن القول بأن المبادئ والمفاهيم التربوية الكلية في القرآن أكثر مقارنة بالتفصيلات، وأن التفصيلات والتطبيقات التربوية في السنة أكثر مقارنة بالمبادئ العامة. وأنه بمراعاة ذلك يمكن أن يُستمد من نبع القرآن ونبع السنة فكراً تربوياً أصيلاً على صعيد أسس التربية والتعليم أو وسائلها وأساليبها أو قضاياها ومشكلاتها اليومية.

والخلاصة، أنّ الوحي متمثلاً بالقرآن والسنة، يعدّ مخزناً لموضوعات الفكر التربوي الإسلامي وقضاياه، بما جاء به من أصول نظرية وتطبيقات عملية تخصّ عَالَم النفس البشرية التي تعدّ "مَعْمَل" التجربة التربوية برمّتها، فهي موجّهة إليها بالأساس. ولو أخذنا مثالاً واحداً على ذلك، وهو ما جاء به الوحي (قرآناً وسنةً) نظرياً وعملياً مما يتعلق بمجال "العِلْم" وحده، لوجدناه يشكل مخزناً معرفياً صادقاً ومختبراً تجريبياً واقعياً، يمكنه أن يرفد الفكر التربوي الإسلامي بوفرة تربوية كافية، شريطة أن يُحسن التعامل معها، وعلى هذا المجال يقاس غيره من المجالات والموضوعات والقضايا التي تخصّ التربية والتعليم وليس هنا محلّ تفصيلها؛ لأن الهدف هو التنظير للقرآن والسنة باعتبارهما مصدراً للفكر التربوي الإسلامي.

2. التراث التربوي الإسلامي

يُعرف الباحث التراث التربوي الإسلامي بأنه ذلك الكمّ المعرفي في مجال التربية والتعليم الذي تركته الأجيال المسلمة السابقة للجيل المسلم الحاضر. وينظر إلى هذا التراث التربوي باعتباره مصدراً للفكر التربوي الإسلامي في سياق ذلك البناء التراكمي لخبرات الأمة المسلمة عبر القرون الماضية التي تمثِّل حالتها الحضارية، وهويتها، وعمقها الوجودي والإنساني والتاريخي، في إطار تفاعلها العقلي مع واقعها الاجتماعي وسياق النصوص الشرعية. فوفق تلك المنظومة من السياقات يتمّ التعامل مع التراث التربوي للمسلمين على أنه مصدر أساسي من مصادر الفكر التربوي الإسلامي.

وترجمة الكلام المتقدّم في سياق اعتبار التراث التربوي مصدراً للفكر التربوي الإسلامي يعني أنه لا يمكن أن يكون هناك فكر تربوي إسلامي بدون الاستناد إلى التراث التربوي الإسلامي قطعياً؛ لأنه يعتبر امتداداً له شرعياً وحضارياً ومعرفياً، وأن الانقطاع عنه وتجاوزه يعني التنكر لهوية الأمة الإسلامية، وأصالتها الحضارية، وعراقتها الاجتماعية، والوقوع في "أتون" دعوات

الحداثة والحداثيين. وإضافة لذلك، فإنّ الترجمة العملية لما تقدّم من كلام تعني أيضاً أن هذا التراث التربوي للمسلمين هو إنتاج العقلية المسلمة التي عاشت في ماضي هذه الأمة، وأبدعت واجتهدت وقدّمت ما قدّمت من "نتاج تربوي" متصل بواقعها المعيش، وعليه، فإنّ التصور الإسلامي السليم يقتضي النظر إلى هذا التراث التربوي بأنه "اجتهادات علماء مسلمين سابقين"، وهي قابلة للصواب والخطأ من جهة، كما أنها ممكنة لأن تكون صالحة لحاضرنا أو غير ممكنة رغم صوابيتها الشرعية.

وبانضمام "مصدرية التراث التربوي الإسلامي" إلى المصدرية الأساسية "الوحي"، تصبح معادلة الفكر التربوي الإسلامي بالتعاطي مع هذين المصدرين، أن يقدّم أولاً النَظَرَ والبحث في القرآن والسنة، ثمّ ينتقل إلى التراث التربوي الإسلامي. وبالنسبة لمصدرية التراث التربوي الإسلامي، فهي مصدرية متسعة تاريخياً وحضارياً بشكل كبير جداً لتشمل ما تمّ تأليفه وكتابته سواء بشكل مستقلّ أو متصل بغيره من علوم الإسلام عبر أربعة عشر قرناً، وهي تصانيف كثيرة وغنيّة تحتاج لجهود فردية ومؤسسية لِمَسْحِها وقراءتها في المكتبة الإسلامية التراثية، والقيام بعملية معالجة شرعية وواقعية لها، بحيث يتمّ استخلاص ما هو مناسب لحاضر أمتنا وواقعها التعليمي، وما هو مفيد وصالح لبناء نظامها التربوي، ونظريتها التربوية الإسلامية. بذلك يكون الفكر التربوي الإسلامي قد جعل من التراث التربوي للأمّة مصدراً متجدداً ومُفيداً يصل حاضر المجتمع المسلم بماضي أمته، ويطبعه بخصائص حضارتها، ويضمن له هوية تربوية مستقلة به.

3. الاجتهادات التربوية الإسلامية الحديثة

هذا المصدر بهذه التسمية قد يُنازع فيه الباحث، من جهة تقاربه مع المصدر السابق (التراث)، ومن جهة فائدته وإضافته الجديدة. والحقيقة أن الباحث بعد تأمّل "بواقع" مصادر الفكر التربوي الإسلامي، وجد هناك مساحة لا تغطيها المصادر السابقة، ولا كذلك ما تذكره مؤلفات الفكر التربوي الإسلامي، وهذه المساحة تتعلق بالنسبة للفكر التربوي الإسلامي بفترة ومساحة ما بعد التراث إلى واقعنا المعاصر؛ ذلك أن الفكر التربوي الإسلامي يشمل مساحة الماضي والحديث (الحاضر)، والتراث يغطي الماضي، فكيف نغطي الحديث؟

من هنا؛ فإن هذا المصدر "عملياً" يمثل ذلك الإنتاج التربوي الحديث للعلماء والمفكرين والتربويين المسلمين والذي لا يمكن أنْ نُسميّه تراثاً. فمثلاً هناك المئات من المؤلفات في حقل

التربية والتعليم الإسلامي ترجع لعشرات السنين أو لسنوات عدة، وهي تدخل في الإطار الزمني للفكر الحديث أو للتاريخ الحديث والذي قد يرجع إلى مئة سنة أو يزيد، ولا يمكن بحال أن يسْتغني الفكر التربوي الإسلامي المعاصر عنها، فهي مراجع ومصادر معتبرة.

وبذلك يُفيد تحديد هذا المصدر وتَّسْميته "الاجتهادات التربوية الإسلامية المعاصرة" تكميل تغطية المساحة الزمانية لإنتاج العلماء والمفكرين المسلمين في مجال التربية، كما يضمن عملية "الاستمرارية" في الاجتهاد التربوي والبناء التراكمي المتصل للمعرفة التربوية، وإمكان تطويرها للأفضل وللأكثر ملائمة لحاضرنا الاجتماعي والتربوي المشهود، وبخاصة مع استصحاب قاعدة التعامل مع "المُنْتَجْ الإنساني" على أنه قابل للخطأ والصواب، وأن ليس كل صواب فيه قد يكون صالحاً للتطبيق المعاصر.

4. الخبرات التربوية العالمية

يقصد بالخبرات التربوية العالمية، تلك الآراء والتطبيقات والتجارب التي قدمتها الحضارات الإنسانية العالمية في مجال التربية والتعليم. فهي بذلك تُشكل مصدراً من مصادر الفكر التربوي الإسلامي لكن بالشروط الإسلامية.

ومردّ اعتبار "الخبرات التربوية العالمية" مصدراً من مصادر الفكر التربوي الإسلامي، هو ما يمتاز به الإسلام من خاصية المرونة والاجتهادية، وما تمتاز به حضارته وفكره الإسلامي من خاصية الانفتاح على الآخر والتفاعل الإيجابي والتحاور العقلاني معه، والاعتراف الواقعي بإنجازاته.

وممّا لا شك فيه، أن للحضارات الإنسانية عطاءاتها وإنجازاتها في شتى مجالات الحياة وعبر زمانها الماضي والحاضر التي لا يمكن لأيّ عاقل إنكارها أو تجاهلها، ومنها ما تمّ تقديمه في المجال التربوي والتعليمي من آراء ومؤلفات ونظريات وتجارب ووسائل وتكنولوجيا ومؤسسات وغيرها. ولا يمكن أن يكون موقف الفكر التربوي الإسلامي الانغلاق أمامها ورفض كل منجزاتها، بل إن الفكر التربوي الإسلامي يعدّها مصدراً تابعاً للمصادر السابقة، حيث يستمد منها تلك الخبرات التربوية ضمن شروط ومعايير إسلامية وحضارية تتمثل بالآتي:

- موافقة ما يُؤخذ من خبرات تربوية لأصول الشريعة الإسلامية ومقاصدها التي يحدّدها علماء الإسلام ومؤسسات الفتوى المعتبرة.

- مناسبة ما يتم نقله من خبرات تربوية لأبناء المجتمع المسلم، وتحقق الفائدة العلمية المرجوة منها، وعدم وجود بديل يسدّ مكانها، وهذا ما يُبيّنه أهل الاختصاص من التربويين المسلمين ومؤسسات التربية الإسلامية.
- التركيز في التعامل مع الخبرات التربوية العالمية على ما له صلة بالوسائل والأساليب والآليات والتكنولوجيا ضمن تحقيق معايير الجودة الإسلامية وملاحظة قيم المجتمع المسلم، والابتعاد قدر الممكن عن أخذ الخبرات التربوية العالمية ذات التكوين المفاهيمي الوجودي والحضاري، بل والحذر من نقلها إلا بعد فحصها التربوي والعلمي والقيمي الدقيق.
- الاقتصار على ما تثبتت حاجته الفعلية، مع إجراء التعديلات اللازمة عليه، سواء على الصعيد القيمي أو التطبيقي بحيث يتفق والحاجات التربوية للمجتمع المسلم.

المبحث الرابع: مِعْيارِيّة الفكر التربوي الإسلامي

يعالج هذا المبحث مُحَدِّداً غاية في الأهمية من محددات الفكر التربوي الإسلامي، يتعلق بمِعْياريّة هذا الفكر، بمعنى: ما هو المعيار أو الميزان أو المقياس الذي نحكم من خلاله على هذا الفكر التربوي أو ذاك بأنه فكر إسلامي على الحقيقة، أي أنه فكر ينتمي فِعلاً للإسلام؟ وهذا موضوع ضروري جداً لكونه يتعلق بالفكر والذي يتسع ويتنوع وتختلف درجاته وقوته وضعفه.

وإذا ما عُدْنا إلى مفهوم الفكر التربوي الإسلامي– المتقدّم والمعتمد في هذه الدراسة– فإنه يمكن تحديد ثلاثة منطلقات ترتبط بمعيارية الفكر التربوي الإسلامي وترسم ملامحها، وهي:

المنطلق الأول: وصف "الفكر"؛ أي ما جاء في مفهوم الفكر التربوي الإسلامي من كونه "النتاج والتأمل العقلي"، وعليه، فنحن إذن أمام "مُنتج عقلي إنساني" ولسنا أمام "خَبَر وَحْي إلهي"، ولهذا دلالتان:

- الأولى: أننا أمام فكر تربوي قد يكون مصيباً للحق وقد لا يكون؛ لأنه منطوق عملية عقلية إنسانية تخضع لنواميس البشر في الصواب والخطأ، وعليه فوجود مِعيار يُحكم من خلاله على هذا الفكر هو أمرٌ لا بُدّ منه.
- والثانية: ضرورة التفريق بين الوحي والفكر التربوي: فالوحي معصوم، والفكر التربوي غير معصوم. "فالفكر الإسلامي– ومنه التربوي– ليس هو الإسلام نفسه، من حيث هو وحي

إلهي ثابت في مصدريه المعصوميْن؛ ولذلك فإن ذلك الفكر ليس له عصمة الإسلام نفسه، ويجب ألا يُخلط به"(عبد الحميد، 1996، 41).

فالتفريق بين الفكر (التربوي) الإسلامي من جانب، والوحي الإلهي من جانب آخر ضروري؛ لأن الفكر هو نتاج إنساني، يعتريه ما يعتري الإنسان من قصور وخلل، وخطأ وهوى، وخضوع لضغط الزمان والمكان وأثرها ونحو ذلك، أما الوحي، فهو مطلق من الزمان والمكان، ومنزه عن الباطل جملة وتفصيلاً، ومعصوم من الخطأ قلّ أو كثر، دَقَّ أو كبر (سلطان، 1992)، وكذلك فإن الوحي الذي يتمثل في القرآن والسنة الصحيحة له صفة الديمومية والاستمرارية التي تتخطىّ عوامل الزمان والمكان، ولا يخضع لقوانين النسْبية كما هو حال الفكر الإنْساني التربوي منه وغير التربوي، ففكرنا التربوي الإسلامي هو نتيجة التعامل النسْبي مع المطلق (أبو العينين، دت، وسلطان، 1992)، أي تفاعل العقل مع الوحي، ولذلك حينما نقرأ في كتب الفكر التربوي الإسلامي "سنجد نصوصاً (آراء وأفكاراً) نستقبلها بالطمأنينة واليقين، ويؤيدها النص المعصوم، والعقل السليم، والوجدان الصالح، وسنجد نصوصاً أخرى لا يشهد لها نص معصوم، ولا عقل سليم، ولا يقبلها الوجدان، بل ينفر منها" (سعيد وآخرون، 2002، 63)، وهذا لا يكون في حق الوحي (القرآن والسنة الصحيحة) فكلها يتقبلها العقل الصريح ويطمئن لها القلب السليم.

المنطلق الثاني: وصف "إسلامي". فالفكر التربوي المقصود هنا موصوف بوصف "إسلامي"، وهو يرتبط بشكل مباشر موضوع "المِعْيارية"، ويشكل أحد أهم منطلقاتها، وهنا تحديداً يمكن أن تقع اجتهادات متعددة في تعليل هذا الوصف للفكر التربوي بأنه "إسلامي"، فما الذي يعنيه وصف "إسلامي" وما الذي يُفيده؟

بداية، لا بد من الإشارة إلى أن وصف "إسلامي" للفكر أو للأشياء لم يكن دارجاً في ظل الحضارة الإسلامية والدولة الإسلامية، أي حينما كان الإسلام مطبقاً ويشكل نظام الدولة، ولكن بعد انهيار الخلافة الإسلامية وظهور العَلْمانية كأنظمة حكم في الدول والمجتمعات الإسلامية، برزت الحاجة إلى استخدام وصف "إسلامي" مضافاً إلى عالم الأفكار أو عالم الأشياء ليشير إلى خصوصيتها الإسلامية ومفارقتها لغيرها من الاتجاهات العلمانية واللاّدينية، فأصبح هناك فكر إسلامي، وبنك إسلامي، ومدارس إسلامية، ومفكر إسلامي وهكذا.

ويرى الباحث أن هناك اعتبارات عدّة يمكن من خلالها وصف "إسلامي" حينما ينسب إليه الفكر التربوي. منها: الاعتبار الحضاري، بمعنى أن هذا الفكر التربوي قد أنتج وتوّلد في ظلّ الحضارة الإسلامية، ومنها الاعتبار السياسي، بمعنى الفكر التربوي الذي وجد في ظل الدولة الإسلامية، ومنها: الاعتبار الاجتماعي: بمعنى ذلك الفكر التربوي الذي أنتجه المجتمع المسلم، ومنها الاعتبار الديني، بمعنى ذلك الفكر التربوي الذي أنتجه المفكر المسلم، ومنها: الاعتبار المنهجي، بمعنى ذلك الفكر التربوي الملتزم بِمبادئ الإسلام.

والذي يذهب إليه الباحث في تفسير وصف "إسلامي" حينما ينسب إلى الفكر التربوي والذي يشكل فيه معياراً ومقياساً، هو الاعتبار الديني والمنهجي، بمعنى أن وصف إسلامي يدلّ على أمرين: أن الشخص الذي قام بإنتاج هذا الفكر التربوي هو شخصية مسلمة، وأنه قد التزم بالأصول الإسلامية. وبذلك يكون وصف "إسلامي" إحدى منطلقات معيارية الفكر التربوي الإسلامي حيث يتطلب من المفكر التربوي أن يكون مسلماً وأن يكون ملتزماً بالأصول الإسلامية.

المنطلق الثالث: وصف "المنهجية الإسلامية" حيث أشار مفهوم الفكر التربوي الإسلامي إلى ضرورة التزام عملية الإنتاج التربوي التي يقوم بها المفكر المسلم بالمنهجية الإسلامية، وهو بذلك يشكل مقوماً أساسياً من مقومات "معيارية الفكر التربوي الإسلامي". ويشير هذا المنطلق إلى أن الفكر التربوي لا يكون إسلامياً إذا خضعت جميع العمليات العقلية والبحثية خلال مراحل إنتاجه للضوابط الشرعية والأسس البحثية العلمية التي يقرّها الإسلام، فلا يمكن – على سبيل المثال– أن نعدّ ذلك الفكر التربوي الذي يستبعد أصحابه السنة النبوية من مصادر تفكيرهم فكراً تربوياً إسلامياً، كما لا يمكن أن نعد ذلك الفكر التربوي الذي ترفض القياس والتجريب بأنه فكر تربوي إسلامي.

ويمكن الوصول إلى النتيجة الآتية، وهي أن "معيارية" الفكر التربوي الإسلامي "ومقياسه" و"ميزانه"، تتحقق بالشروط الآتية:

1- عقلية مسلمة.
2- مصادر معرفية إسلامية.
3- مبادئ وقيم الإسلام ومقاصده.
4- طرق بحثية واستدلالية علمية.

5- قضايا وموضوعات واقعية ونافعة.

وبمجموع هذه الشروط يحكم على الفكر (المُنْتج) التربوي بأنه فكر تربوي إسلامي، بمعنى يعبر فعلاً عن الإسلام ورسالته ودعوته وحضارته الأصيلة، وعليه فإن هذه الشروط الخمسة تشكل "معيارية" الفكر التربوي الإسلامي. فأيّ فكرة تربية موجودة أمامنا يعرض عليها، كما أن أي فكر تربوي يراد إنتاجه لا بد أن يأخذ بها.

وهنا، لا بد من مناقشة واقع الفكر التربوي الإسلامي الموجود والمنتج والمكتوب، فبماذا نصفه أمام هذه المعيارية التي تمّ طرحها. ويرى الباحث أنه لحلّ هذا الإشكال وتجاوزها، فإنه يمكن أن يقال: هناك معيارية للفكر التربوي الإسلامي (تصور نظري سليم له)، وهناك واقع للفكر التربوي الإسلامي، وهذا في الحقيقة يوصف بأنه فكر تربوي للمسلمين، يخضع لتلك المعيارية، فما وافقها قلنا عنه فكر تربوي إسلامي، وما لم يوافقها استبعدناه، فنحن وإن كنا نطلق على ما هو موجود ومُؤلّف ومكتوب فكر تربوي إسلامي، فإن المقصود بذلك فكر تربوي للمسلمين، أي قام به وأنتجه مسلمون، ثمّ هو يقايس بعد ذلك بالمعايير الإسلامية، فإن أصابها استحق وصف فكر تربوي إسلامي، يمثل الإسلام ويعبر عنه حقيقية.

فتصبح معادلة "واقع" الفكر التربوي الإسلامي "ومعيارية" كالآتي: فكر تربوي للمسلمين (منتج مختلط)- يخضع لعملية مطابقة لشروط المعيارية- يستحق على أساسها مسمى فكر تربوي إسلامي.

المبحث الخامس: انعكاسات محددات الفكر التربوي الإسلامي على المفكّر التربوي

يُعنى هذا المبحث بدراسة أهم الانعكاسات لمحددات الفكر التربوي الإسلامي التي تمت دراستها سابقاً على وَعْي المفكر التربوي (المسلم) وأفقه التربوي وتوجهاته البحثية وإنتاجه المعرفي. فالمحددات السابقة إذا ما تمّ إدراكها جيداً من قبل المفكر والباحث في ميدان التربية الإسلامية، لا بُدّ أن تترك أثراً واضحاً في عقليته التربوية ونمطه البَحْثي. وسيجتهد الباحث بتحديد أهم تلك الانعكاسات والآثار ويُنظمها وفقاً لمباحث الدراسة المتقدّمة، كما يأتي:

أولا: انعكاسات "مفهوم الفكر التربوي الإسلامي" على المفكّر التربوي

بناء على المفهوم المختار للفكر التربوي الإسلامي، فإن الباحث يُعرّف "المفكّر التربوي الإسلامي" بأنه "المسلم الذي يلتزم بالمنهجية الإسلامية في عملياته العقلية لإنتاج المعارف التربوية المتصلة بميادين الدين والكون والحياة".

المفكّر التربوي المسلم هو شخصية كثيرة التفكير وإعمال العقل في ميدان التربية والتعليم وعميقة التأمّل في موضوعاتها، لا مجرّد ناقل للآراء الآخرين. وهذا ما يُفيده وصف "مفكّر" ودلالاته اللغوية.

تؤثر دلالة "الفكر" في القرآن الكريم بجعل تفكير المفكر التربوي المسلم تفكيراً "مُهْتدياً" وعملياً ونافعاً، وبعيداً كل البعد عن الجدليات والتأملات الخيالية والخرافية.

يقوم المفكر التربوي المسلم بتمحيص أدبيات الفكر التربوي للمسلمين ونقدها ولا يكتفي أثناء التعامل معها أو تدريسها بالتسليم لما هو مكتوب فيها.

يعرف الباحث الحدود الفاصلة نظريا وعملياً بين مفهوم الفكر التربوي الإسلامي وغيره من المفاهيم ذات الصلة.

ثالثاً: انعكاسات "خاصية الاجتهادية للفكر التربوي الإسلامي" على المفكر التربوي

يدرك المفكر التربوي المسلم الفرق الواضح بين ما يُنتجه من آراء تربوية بعد عملية التفكير والنظر وما جاء في نصوص الوحي، إذْ تقع آراؤه في دائرة الاجتهاد القابل للخطأ والصواب وأنه ليس لها أيّ حظّ من تلك العِصْمة التي يتمتع بها الوحي (نصوص القرآن والسنة)، وهذا ما يجعله متواضعاً فيقبل النقد لأرائه، كما أنه يعمل على مراجعتها وتعديلها، ولا يطرحها للآخرين أو يعلّمها لهم مضيفاً عليها صفة القدسية والحق الذي لا عدول عنه مطلقاً، بل هي "نِسْبية"، والمطلقية إنما هي للوحي.

تُبقى خاصية "الاجتهادية" المفكر التربوي المسلم منفتحاً على عصره (الأسمر، 1997، والقرضاوي، 1994) وقضايا زمانه التربوية والتعليمية، فخاصية الاجتهادية تعني ارتباط تفكير المفكر التربوي المسلم بالواقع الذي يعيشه ومحاولة فهمه بكل تشعباته وسبر أغواره ووضعه في إطار النصوص الشرعية ومبادئ الإسلام ومقاصده، ليستخرج بعد ذلك مواقف صادقة تعالج الواقع

التربوي القائم ومشكلات التعليم وسبل تجاوزها. فهذا هو الاجتهاد التربوي كما هو حال الاجتهاد الفقهي تماماً الذي لطالما عالج تلك النوازل الفقهية وأوجد لها الفتاوى والحلول المناسبة.

ثالثاً: انعكاسات "مصادر الفكر التربوي الإسلامي" على المفكّر التربوي

يدرك المفكّر التربوي المسلم أولوية المصادر ودرجة أهميتها وسلّم ترتيبها حينما يريد مناقشة موضوعات وقضايا الفكر التربوي الإسلامي، فيعطي الأولوية لمصدرية الوَحْي المتمثلة بالقرآن الكريم والسنة النبوية ثمّ ينتقل بعد ذلك إلى غيرها من المصادر المعتبرة، وبذلك يضمن إنتاجاً تربوياً قريباً من الصواب والحق.

تعاطي المفكّر التربوي المسلم مع القرآن والسنة كمصادر معرفية أساسية، يضمن له تكوين "فكرة شاملة متكاملة عن الكون والإنسان والمجتمع والأمة والمعرفة والأخلاق لا يستطيع تكوينها بهذا الشمول والتكامل لو رجع إلى الفلسفات الوضعية قديمها وحديثها على السواء"(الشيباني، دت، والشيباني، 1979)، وهذه الفكرة الشمولية عن حقائق الوجود هي من أهم معطيات مصدرية القرآن والسنة التي تقدّمها للمفكر التربوي المسلم ليتمكن من التحرك من خلالها وبناء آرائه التربوية وفقاً لها، كما أن تعامل المفكرين التربويين المسلمين مع مصدرية الوحي وإعطائها الأولوية واستمداد المعارف الوجودية الكلية منها، والتعامل مع معطياتها هو ما يكفل حالة "التقارب" و"الانسجام" بين آراء وفكر المفكرين التربويين المسلمين رغم تباعدهم زمانياً أو اختلافهم مكانياً، وهو ما تمسّ الحاجة إليه في ظل واقعنا الإسلامي التي تَعْصف به الفُرْقة وتضارب الآراء وتصادم الأفكار إلى حدّ لا يمكن إنكار وجوده.

يتعاطى المفكّر التربوي المسلم مع التراث التربوي للمسلمين واجتهاداتهم التربوية، باعتبارها مصدراً أساسياً من مصادر عملية بنائه للفكر التربوي المعاصر، مُدركاً طبيعة هذا المصدر من كونه مصدراً اجتهادياً تقبل محتوياته الصواب والخطأ، وواعياً بأهمية هذا المصدر (التراث) باعتباره يشكل هوية الأمة، ويعبر عن حضارتها، ويمثل تجربتها التربوية في تاريخها وامتدادها الحضاري. كما يتعامل المفكر التربوي المسلم مع ذلك التراث التربوي الضخم والواسع والممتد عبر الزمان لقرون وعبر الدول لقارات متعددة، بدرجة من التركيز في البحث والتخصصية في المجال التربوي أو التعليمي المراد بحثه، وقيام ذلك على عملية الجمع من المصادر الأصيلة وتوثيقها بدقة، ثمّ إخضاعها لعملية النقد والتحليل في إطار المنهجية العلمية للبحث ومبادئ الإسلام وثوابته، لتنقية

ذلك التراث التربوي وربطه بواقع الأمة ورَفْد مجالها التربوي والتعليمي بالنافع من تلك الآراء والأفكار والتجارب تمهيداً لتطبيقها في حاضرها التربوي. وبذلك يكون المفكر التربوي المسلم قد عالج التراث التربوي معالجة إسلامية منهجية وإجرائية وتعامل معه كمصدر معتبر ومفيد من مصادر فكرنا التربوي الإسلامي.

يُخْضع المفكر التربوي المسلم الخبرات والآراء التربية الإنسانية لمعايير القرآن والسنة (رمزي، 1988)، وقيم الإسلام وهوية الأمة، فيتعامل مع هذا المصدر ضمن هذه الضوابط، ليأخذ فيها بعد ذلك ما هو نافع المجتمع وما يحتاجه. وقد وقع قدر من "التأرجح والقلق وعدم التخطيط في التعامل مع الثقافات والحضارات غير الإسلامية، تلك التي تفاعل معها المسلمون بعد إذ وجدوا أنفسهم إزاءها وجهاً لوجه"(خليل، 2005، 183)، كما حدث حينما تمّ التعامل قديماً مع الفكر الفلسفي العام، حيث تحوّل لدى بعض فلاسفة المسلمين إلى مصدر أساسي من مصادر معرفتهم (عبد الحميد، 1996)، وتبنّوا كثيراً من الآراء في المفاهيم الوجودية التي قدمتها تلك الفلسفات وكان لها انعكاساتها السلبية على فكرهم التربوي. وكذلك حديثا كما حدث مع الاتجاه التغريبي في البلاد العربية وخاصة في مصر، حيث تعاطى المفكرون مع مصادر المعرفة الغربية بطريقة لا تتفق مع المعايير الإسلامية، فلقد اعتمد المفكرون التغريبيون على مصادر معينة اشتقوا منها آراءهم وأفكارهم كانت كما يلي:

1- الفكر الغربي الحديث، بما احتواه من فلسفة يونانية، وفكر مسيحي ويهودي، وروماني، ثم اتجاهاته الحديثة.
2- الفكر الاستشراقي بتفاعلاته مع السياسة الغربية الاستعمارية دون تمييز بين النافع والضار منه.
3- الفكر المصري في قطاع ضيق منه، وهو ما سار في فلك الحضارة الغربية وأصولا، وكانت انعكاسات هذا الفكر على الفكر المصري والتربوي كثيرة، سواء في النظرة للإنسان، أو في الأهداف أو في المناهج أو في السلم التعليمي، أو في التربية المدرسية، وغير ذلك من مكونات النظام التعليمي"(أبو العينين، دت، 431). من هنا فالمفكر التربوي المسلم كما يتعامل مع تراثه التربوي الإسلامي بعين البصيرة والنقد، فإن عليه-

من باب أولى- أن يتعامل مع الخبرة الإنسانية بحذر علمي ووعي حضاري وإطار منهجي إسلامي.

يلتزم المفكر التربوي المسلم حينما يبحث موضوعاً تربوياً أو تعليمياً مسار "التكامل" في التعامل مع مصادر الفكر التربوي الإسلامي، بحيث يأخذ من كل المصادر ما له علاقة بموضوعه، ويُعْمل عَمله فيها جميعاً وفق الشروط العلمية.

يلتزم المفكر التربوي المسلم بالتفاسير القرآنية المعتبرة، وبالشروحات الحديثة المعروفة حينما يريد أن يفهم نصاً شرعياً، ويستنبط منه فكراً تربوياً.

رابعاً: انعكاسات "معيارية الفكر التربوي الإسلامي" على المفكر التربوي

يحقق المفكر التربوي المسلم صفة "الإسلامية" لآرائه وفكره التربوي الذي يقدّمه حينما يلتزم بالمعايير الإسلامية والعلمية في جميع مراحل تفكيره التربوي: منطلقات ومسيرة وعمليات واستنتاجات.

يزن المفكر التربوي المسلم ما يقف عليه من آراء وفكر تربوي للآخرين بميزان الشرع ويحاكمها إلى مفاهيم الإسلام وقِيمه قبل أن ينقلها، أو يعلن موافقته عليها، أو تعليمها، كما عليه أن يقدّم الأدلة والبراهين على تلك الأفكار التربوية التي يرفضها.

يفرّق المفكر التربوي المسلم بين الفكر التربوي الإسلامي والفكر التربوي العام. فليس كل كتاب معنون بالفكر التربوي يمثل فكراً تربوياً إسلامياً، بل لا بُدّ من فهم الاختلاف بينهما جيداً سواء في المصادر أو مضمون الآراء وأطرها الكلية، فلا يقوم بتبني أيّ موضوع أو تدريسه لمجرد التشابه في العناوين، ومثل هذا يحصل أحياناً عند التأليف أو في التدريس الجامعي، فمثلاً لا يجوز بحال أن يقتبس مضمون "الأهداف التربوية" من الفكر التربوي العام وتوضع تحت عنوان الأهداف التربوية للفكر التربوي الإسلامي لمجرد الاتفاق في العنوان، ذلك أن المضمون والمنطلقات ومصادر اشتقاق الأهداف وأنواعها وغاياتها مختلفة ما بين الفكر التربوي العام الذي يستند إلى عقل الإنسان فقط والفكر التربوي الإسلامي الذي يستند بالدرجة الأولى إلى الوحي الإلهي.

الخاتمة

وتشتمل على النتائج والتوصيات.

أولا: النتائج

خرجت الدراسة بتعريفٍ للفكر التربوي الإسلامي على أساس أنه النتاج التربوي المعرفي وآلياته للعقلية المسلمة من مفكرين وعلماء وتربويين، والمتصل بصورة مستقلة أو غير مستقلة بميادين الدين والكون والحياة والإنسان، وذلك في ضوء المنهجية الإسلامية. وتم الوصول لهذا التعريف بتحقيق متطلبات المنهجية البحثية التي اقتضت البدء بتعريف الفكر عموماً وفي لغة القرآن، ثم استعراض وتحليل تعريفات الفكر التربوي الإسلامي التي كان عددها محدودا جدا رغم سعة انتشار المصطلح. وجاء هذا التعريف مراعيا لطبيعة الفكر، ومحددا لنوع النتاج المعرفي للعقلية المسلمة بالنتاج التربوي فقط، وشموليته لكل ما تمّ تقديمه من قبل العقلية المسلمة من عمليات اجتهادية في مجال التربية والتعليم: من آراء ومنهجية، كما ترك التعريف القيد الزماني مفتوحاً، ليشمل مفهوم الفكر التربوي الإسلامي كل ما أنتج منه قديماً وحديثاً. وبذلك تكون الدراسة قد قدمت مقاربة تساعد في تجاوز إشكالية التعاطي مع مفهوم الفكر التربوي الإسلامي.

خرجت الدراسة بتحليل لأهم خاصية من خصائص الفكر التربوي الإسلامي وطبيعته التي تميزه عن غيره وهي خاصية "الاجتهادية" التي قصد بها هنا: أن الفكر التربوي الإسلامي هو عملية إنسانية، نتجت عن تفكير الإنسان ونظره وتأمّله واستخدامه الآليات والمناهج ومصادر المعرفة المتاحة. كما أنها تقوم على "ثلاثية" تفاعل العقل مع النصوص الشرعية مع واقع الحياة التربوي. فمحصلة ما يُقال عنه بأنه فكر تربوي إسلامي من آراء وموضوعات وأفكار وحلول لمشكلات تربوية وتعليمية ما هو إلا حاصل تفاعل عقل المسلم (تفكيره ونظره وفهمه وتأمّله) مع نصوص الشرع (آيات قرآنية وأحاديث نبوية) مع واقع الحياة (جوانبها المختلفة التي تمس التربية والتعليم). ولولا هذا التفاعل بين هذه الثلاثية (العقل والنص والواقع) لما خلصنا إلى ما يسمّى بالفكر التربوي الإسلامي. وبذلك تمكنت الدراسة إضافة لتمكين هذه الخاصية وتقريرها من تجاوز إشكالية الخلط بين خصائص الفكر التربوي الإسلامي وخصائص الإسلام نفسه كما تقدم مناقشة ذلك في موضعه

خرجت الدراسة بتحديد لمصادر الفكر التربوي الإسلامي تمثلت بالوَحْي (القرآن والسنة)، والتراث التربوي الإسلامي، والاجتهادات التربوية الإسلامية الحديثة، والخبرات التربوية العالمية. وجاء هذا التحديد بناء فقه المحددات العلمية للتعاطي مع مصادر الفكر التربوي الإسلامي من جهة التأكيد أننا حينما نريد تحديد مصادر الفكر التربوي الإسلامي، فإن المقصود هو تحديد

المنابع التي تُستمّد منها الآراء التربوية، والمرجعيات العلمية التي يتمّ التقيّد بها حينما نريد أن نبني فكراً تربوياً إسلامياً، والمخازن التي تحتوي كّماً تربوياً يمكن للأمة المسلمة أن تعالج به واقعها التربوي. لذا وجب على مَنْ يبحث في مصادر الفكر التربوي الإسلامي أن يشير إلى تلك المصادر كيف يمكن أن تشكل بالفعل مصدرية ومرجعية لإنشاء فكرٍ تربوي إسلامي لا الاكتفاء فقط بالحديث عن المصدر ذاته والتعريف به فقط. ومراعاة أن تحديدها مرتبط بفهم طبيعة الفكر التربوي الإسلامي

تتكون مقومات "معيارية" الفكر التربوي الإسلامي"ومقياسه" بالآتي: عقلية مسلمة، ومصادر معرفية إسلامية، ومبادئ وقيم الإسلام ومقاصده، وطرق بحثية واستدلالية علمية، وقضايا وموضوعات واقعية ونافعة. وبمجموع هذه الشروط يحكم على الفكر (المُنْتج) التربوي بأنه فكر تربوي إسلامي، بمعنى يعبر فعلاً عن الإسلام ورسالته ودعوته وحضارته الأصيلة، وعليه فإن هذه الشروط الخمسة تشكل "معيارية" الفكر التربوي الإسلامي. فأيّ فكرة تربوية موجودة أمامنا يعرض عنها، كما أن أي فكر تربوي يراد إنتاجه لا بد أن يأخذ بهه. وقد تم تحديد مقومات هذه المعيارية بمراعاة عدد من المنطلقات شملت بالأتي: المنطلق الأول: وصف الفكر، والمنطلق الثاني: وصف إسلامي، والمنطلق الثالث: وصف المنهجية الإسلامية.

لفقه المفكر التربوي لطبيعة الفكر التربوي الإسلامي ومحدداته السابقة أثره الإيجابي عليه من جهة أنه يقوم المفكر التربوي المسلم بتمحيص أدبيات الفكر التربوي ونقدها ملتزما في ذلك بالمعيارية الإسلامية ولا يكتفي أثناء التعامل معها أو تدريسها بالتسليم لها. كما ويَصْبغ المفكر التربوي المسلم فكره التربوي بالتوجهات العملية والغايات الوظيفية النافعة خدمة لواقع مجتمعه التربوي واحتياجاته التعليمية ومتطلبات الجودة والتزكية ومواجهة التحديات.

ثانيا: التوصيات

توصي الدراسة طلبة الدراسات العليا بعمل دراسات تحليلية موسعة لمفهوم الفكر التربوي الإسلامي من وجهة نظر التربويين في مؤسسات التعليم. وتوصي كذلك بعمل تحليل لجوانب الاجتهاد في الآراء التربوية للعلماء المسلمين في كتب التراث التربوي ومدى انضباطها بالشروط الإسلامية ومعايير الفكر التربوي الإسلامي الأصيل. كما توصي الدراسة قيام بعض الباحثين بعمل

استبانة مشتقة من هذا البحث في معايير الفكر التربوي الإسلامي وتطبيقها على طلبة الدراسات العليا في تخصص التربية لمعرفة مدى أثرها عليهم في التعاطي مع الأفكار التربوية العامة.

الهوامش

(1) كما في كتاب الفكر التربوي الإسلامي لمحمد العمايرة وكتاب الفكر التربوي الإسلامي لعبدالله الرشدان.

(2) كما في كتاب الفكر التربوي الإسلامي لعبدالله الرشدان، حيث اعتمد فيها على كتاب خصائص التصور الإسلامي ومقوماته لسيد قطب.

المراجع

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري، بشرح صحيح البخاري، تحقيق: ابن باز، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، 1993م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (دون طبعة)، دار سحنون، تونس (دون تاريخ).
- ابن فارس، أحمد بن زكريا، معجم المقاييس في اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمر، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، □□م.
- ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، الطبعة الأولى، مكتبة الصفا، القاهرة، 2003م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد، (دون طبعة) دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م.
- أبو العينيين، علي خليل، أصول الفكر التربوي الحديث بين الاتجاه والاتجاه التغريبي، (دون طبعة)، دار الفكر العربي، القاهرة (دون تاريخ).
- أبو داود، داود سليمان، السنن، تحقيق: محمد محي الدين، دار الفكر، (دون تاريخ).
- أبو دف، محمود خليل، معالم الفكر التربوي عند سيد قطب من خلال تفسيره في ظلال القرآن، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد11، العدد2، 2002م.

- الأسمر، أحمد رجب، فلسفة التربية الإسلامية، الطبعة الأولى، دار الفرقان، عمان، [illegible]م.
- البيك، محمد صالح، ملامح الفكر التربوي الإسلامي في ضوء كتابات الشيخ يوسف القرضاوي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية غزة، كلية التربية، 2009م.
- الترمذي، محمد بن عيسى (دت)، الجامع الصحيح (السنن)، تحقيق: أحمد شاكر، (دون طبعة)، دار إحياء التراث العربي، بيروت (دون تاريخ).
- جرادات، خولة أحمد، المؤلفات المعاصرة في التربية الإسلامية(دراسة نقدية)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، 1996م.
- الجرجاني، علي، التعريفات، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ.
- حسن، عثمان بن علي، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، الطبعة الثالثة، مكتبة الرشد، الرياض، 1995م.
- الخطيب، إبراهيم، وعيد، تربية الطفل في الإسلام، الطبعة السادسة، دار الثقافة، عمان، 1995م.
- خليل، عماد الدين، مدخل إلى الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم، 2005م.
- الدوسري، سرحان، منهج الإمام محمد بن عبد الوهاب في تحقيق الأمن الفكري، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، 2011م.
- الرازي، محمد، مختار الصحاح، الطبعة الحادية عشرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م.
- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، الطبعة الثالثة، دار القلم، دمشق، 2003م.
- الرشدان، عبد الله زاهي، الفكر التربوي الإسلامي، الطبعة الأولى، دار وائل، عمان، 2004م.
- رفاعي، فيصل الراوي، وآخرون، تطور الفكر التربوي الإسلامي، الطبعة الأولى، مكتبة الفلاح، الكويت، 2000م.
- رمزي، عبد القادر، مفهوم التربية الإسلامية عند التربويين المسلمين في الوقت الحاضر، الطبعة الأولى، دار الضياء، عمان، 1988م.

- الزنيدي، عبد الرحمن بن زيد، مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر، الطبعة الأولى، دار اشبيليا، الرياض، □□م.
- السامرائي، فاروق، تعزيز فقه الواقع في ضوء الفكر التربوي الإسلامي، مجلة أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك، الأردن، المجلد13، العدد1، 1997م.
- السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (دون طبعة) دار الحديث، القاهرة، □□م.
- سعيد، همام، وآخرون، الوجيز في الثقافة الإسلامية، الطبعة الأولى، دار الفكر، عمان، 2002م.
- سلطان، جمال، الغارة على التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، مركز الدراسات الإسلامية، بريطانيا،1992م.
- الشاطبي، إبراهيم (دت)، الموافقات في أصول الشريعة، (دون طبعة) دار الكتب العلمية، بيروت (دون تاريخ).
- الشيباني، عمر التومي (1979)، من أسس التربية الإسلامية، الطبعة الأولى، المنشأة الشعبية، ليبيا، 1979م.
- الشيباني، عمر التومي، فلسفة التربية الإسلامية، (دون طبعة) الدر العربية للكتاب (دون تاريخ).
- الصويان، أحمد بن عبد الرحمن، منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة، (دون طبعة) المنتدى الإسلامي، لندن، 2001م.
- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (دون طبعة) دار الحديث، القاهرة، □□م.
- عبد الحق، كايد، ملامح من الفكر التربوي الإسلامي، الطبعة الأولى، دار الوراق، عمان، 2009م.
- عبد الحميد، محسن، تجديد الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، 1996م.
- عتر، نور الدين، منهج النقد في علوم الحديث، الطبعة الثالثة، دار الفكر، دمشق، 1981م.

- عطية، عماد، تطور الفكر التربوي عبر القرون، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد، الرياض، 2004م.
- العمايرة، محمد حسن، الفكر التربوي الإسلامي، الطبعة الأولى، دار المسيرة، عمان، 2000م.
- فلية، فاروق عبده، ومحمد الزكي، معجم مصطلحات التربية، الطبعة الأولى، دار الوفاء، القاهرة، 2004م.
- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، الطبعة السادسة، مؤسسة الرسالة، بيروت، □□م.
- القادري، أحمد راشد، الفكر التربوي الإسلامي، الطبعة الأولى، دار جرير، عمان، 2005م.
- القرضاوي، يوسف، الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة، 1994م.
- القطان، منّاع، مباحث في علوم القرآن، الطبعة الثالثة والثلاثون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول، □□م.
- المحيلبي، بدر محمد، مقدمة في الفكر التربوي الإسلامي، الطبعة الأولى، مكتبة الفلاح، الكويت، 2005م.